8

الجزء الثامن

جزيرة روبن

السنوات المظلمة

obeikandl.com

-٥٩-

وفى منتصف إحدى الليالى أوقظنا واقتدنا عبر ممرات السجن وفى الخارج قيدنا نحن السبعة:وولتر، وريموند، وجوفان، وكاثرادا، وأندرو، وإلياس، وأنا، وحشرنا فى الجزء الخلفى لشاحنة شرطة وفى أقل من نصف ساعة وجدنا أنفسنا فى مطار عسكرى قديم خارج المدينة ودُفعنا نحو طائرة نقل عسكرية عتيقة حملتنا إلى جزيرة روبن. وحينما رسونا قابلنا الحراس المسلحون بالأسلحة الأوتوماتيكية. ثم اقتدنا إلى السجن القديم وهو مبنى حجرى منعزل حيث أمرنا بخلع ملابسنا وألقى إلينا بالزى الكاكى الخاص بجزيرة روبن وكانت تعليمات الأبارتايد تشمل زى السجن فقد أعطى كاثرادا سروالا طويلا وجوربا. وأقسمت وأنا أرتدى السروال القصير ألا أرتديه طويلا.

وفى الصباح الرابع قيدت أيدينا ونقلنا فى شاحنة مغطاة إلى سجن داخل سجن. وكان ذلك عبارة عن قلعة مستطيلة من طابق واحد لها فناء إسمنتى فى المنتصف وكانت الزنزانات تحتل ثلاثة من الجوانب الأربعة أما الجانب الرابع فكان جدارا ارتفاعه عشرون قدما.

وخصصت لكل منا زنزانة وكان لكل زنزانة نافذة مساحتها قدم مربع مغطاة بالحديد وبابان أحدهما من المعدن وله قضبان حديدية وخارجه باب من الخشب الثقيل وفى أثناء النهار كان الباب المعدنى يوصد أما أثناء الليل فكان البابان يوصدان.

ولما شكوت إلى الضابط من رطوبة الجدران قال إن أجسادنا ستمتص الرطوبة وتم صرف ثلاث بطانيات رقيقة بالية لدجة الشفافية وحصيرة من القش لكل منا ثم أضيف إليها حصيرة من اللباد وكانت الزنزانات فى ذلك الوقت من السنة شديدة الرطوبة لدرجة أننا كنا ننام بملابسنا كاملة.

ولحق بقسمنا بعد ذلك عدد آخر من المسجونين السياسيين كانوا فى القسم العام مثل جورج بيك أحد مؤسسى منظمة ملونى جنوب إفريقيا ودنيس بروينس وهو مناضل آخر من الملونين وكان شاعرا وكاتبا وبيلى نير من المجلس الهندى لناتال ونيقل الكسندر من المثقفين الملونين البارزين وعضو حركة غير الأوروبيين وآخرين وكونا مجموعة من عشرين سجينا سياسيا.

وبدأ فى الأسبوع الأول العمل الذى اشتغلنا به لعدة أشهر تالية. فكان يُلقى إلينا كل صباح بحمولة من الأحجار فى حجم الكرة فى مدخل الفناء وباستعمال عربات يد كنا ننقل تلك الأحجار الى منتصف الفناء وكان علينا أن نصحن تلك الحجارة بالمطارق ونحولها إلى حصى. وتم تقسيمنا إلى أربع مجموعات يفصل كل منها عن الأخرى حوالى ياردة ونصف وكنا نجلس على الأرض متربعين ثم كان كل منا يعطى حلقة سميكة من المطاط مصنوعة من إطارات السيارات القديمة نضع فيها الحجارة لمنع تناثر الشظايا التى كانت فى الواقع غير مؤثرة. وكنا نلبس أقنعة من السلك لحماية أعيننا وكان السجانون يمشون بيننا ليفرضوا الصمت والمساجين من الأقسام الأخرى يأتون ليحملقوا فينا كحيوانات متوحشة. وكان العمل صعبا ومملا وغير عنيف بالدرجة التى تجلب لنا الدفء ولكنه متعب بدرجة توجع مفاصلنا.

وكان الجو فى الجزيرة فى ذلك الوقت قارس البرودة وكنت أرتجف حتى وأنا فى الشمس وعند الظهيرة كنا نتوقف للغداء وكان فى الأسبوع الأول حساء كريه الرائحة.

وحدث أن تحديت السجانين بمحاولة مساعدة كاثرادا لتحريك عربة اليد المحملة بالحجارة، وفى الصباح التالى وضعت السلطات دلوا ضخما فى الفناء وأعلنوا أنه لابد وأن يملأ إلى منتصفه قبل نهاية الأسبوع، وفى الأسبوع التالى أعلنوا أن علينا أن نملأ ثلاثة أرباع الدلو فاجتهدنا ونجحنا وفى الأسبوع الثالث أمرنا أن نملأه حتى الحافة وكنا نعلن أننا لن نحتمل ذلك لمدة طويلة ولكن لم نفعل شيئا

وتمكنا من ملء الدلو لكن السجانين استفزونا. وفى الأسبوع الذى تلا ذلك بدأنا أول إضراب للعمل ببطء فى الجزيرة فقررنا أن نعمل بنصف السرعة التى عملنا بها للاحتجاج على المطالب المسرفة وعلى الفور فهم السجانون وأنذرونا لكننا لم نزد سرعتنا وأخذنا فى اتباع استراتيجية البطء مدة العمل فى الفناء.

وكانت جزيرة روبن قد تغيرت عما كانت عليه عندما كنت نزيلا بها عام ١٩٦٢ حيث كان المكان يبدو كتجربة أكثر منه سجنا متكاملا. وبعد سنتين من ذلك التاريخ كانت الجزيرة بدون شك أعتى وأقسى نقطة حدودية فى نظام العقوبات فى جنوب إفريقيا. وكان التقسيم العرقى هناك مطلقا فلم يكن هناك سجانون سود أو مساجين بيض. وهناك كنا معزولين تماما وكان عزاؤنا الوحيد وجودنا معا. لكن سرعان ما اختفى شعورى بالاستياء ليحل محله شعور أن معركة جديدة قد بدأت.

منذ اليوم الأول كنت قد احتججت على إجبارى على ارتداء السروال القصير وطالبت مقابلة مأمور السجن لإبلاغه بقائمة شكاواى وتجاهل السجانون احتجاجاتى. ولكن فى نهاية الأسبوع الأول وجدت سروالا طويلا ملقى على أرض زنزانتى ورغم فرحتى به فقبل أن أرتديه عرفت أنه لم يتم صرف سراويل مماثلة لزملائى وكان إصرارى أن يرتدى جميع الأفارقة السراويل الطويلة لكن مأمور السجن رفض وأخذ منى سروالى.

-٦٠-

وفى نهاية الأسبوعين الأولين أخطرنا أن محامينا برام فيشر وجويل جوف سيزورانا فى اليوم التالى وكان الهدف من زيارتهما معرفة أحوالنا والتأكد من أننا لم نكن نرغب فى الاستئناف. وجلسنا فى الغرفة الخاوية وكنت أشعر برغبة شديدة فى معانقتهما لكن وجود الضابط معنا منعنى وأخبرتهما أننا لا نرغب فى الاستئناف للأسباب التى ذكرناها سابقا. وحينما كنا على وشك إنهاء المحادثة سألت برام عن زوجته مولى ولكننى ما كدت أنطق بالاسم حتى نهض فجأة وخرج من الغرفة وبعد دقائق عاد مرة أخرى وقد تمالك نفسه. واستأنف الحديث. وانتهت مقابلتنا وبينما كنا فى طريقنا إلى زنزانتنا سألنى الضابط إن كنت قد عجبت لتصرف برام فيشر ولما رددت بالإيجاب أخبرنى أن مولى توفيت فى حادث سيارة فى الأسبوع الماضى وكان برام يقود السيارة حينما انحرف بها ليتفادى حيوانا فى الطريق وسقطت السيارة فى نهر وغرقت مولى. وصعقتنى الأنباء فقد كانت مولى امرأة مدهشة كريمة منكرة لذاتها وبدون تحيزات على الإطلاق. وكانت له زوجة وزميلة ورفيقة وكان برام قد خبر المآسى فى حياته عند وفاة ابنه فى سن المراهقة من مرض السكر. وكان تصرف برام عندما سألته متمشيا مع شخصيته فقد كان صبورا لا يحمل أصدقاءه آلامه ومشاكله. وكان كأفريكانى قد فرض عليه ضميره أن يرفض إرثه. ونبذه قومه. وأظهر مستوى من الشجاعة والتضحية لا نظير له. فقد كنت أنا أقاتل ضد الظلم وليس

ضد قومي.

وفي خلال شهر استقرت حياتنا وفقا لنمط معين في السجن. فإن حياة المعتقل روتينية تتماثل فيه الأيام حتى تختلط الأشهر والسنوات. وإن أي شئ يخرج عن القالب يقلق السلطات لأن الروتين علامة من علامات حسن الإدارة في السجن. وقد كانت الساعات من أي نوع ممنوعة وكنا نعتمد على الأجراس وصفارات السجانين وصيحاتهم لمعرفة الوقت. وكان من بين أوائل ما فعلته هو أن أسجل تقويما على الحائط فإن الإنسان إذا فقد قبضته على الوقت فقد قبضته على سلامة عقله.

إن التحدى الذى يقابل كل سجين وخاصة السجين السياسى هو المحافظة على ذاته فى السجن وأن يخرج من السجن دون أن يتضاءل وأن يحتفظ بل ويزيد من عقائده. وأول مهمة لتحقيق ذلك هو أن يتعلم المرء كيف يبقى ولكى يتحقق ذلك فلابد للمرء أن يعرف هدف عدوه. فإن السجن يهدف إلى هزيمة معنويات الإنسان وتقويض عزمه ولكى يتحقق ذلك تحاول السلطات استغلال كل ضعف وتحطيم كل دافع وأن تبطل ما يدل على التفرد وذلك لكى تقضى على تلك الومضة التى تضفى على كل آدمى هويته.

وكان بقاؤنا يعتمد على فهم ما تحاول السلطة أن تفعله وتَشَارُك ذلك الفهم. كان من المستحيل أن يقاوم الفرد منفردا وكان خطأ السلطة الأكبر هو إبقاؤنا معا لأن ذلك قوّى تصميمنا. وهكذا عاون الأقوياء من

هم أقل قوة وصرنا جميعا أقوياء وفى النهاية فقد كان علينا أن نخلق حياتنا داخل المعتقل. وكما اعترفت بذلك السلطات فقد كنا نحافظ نحن على النظام أكثر من السجانين.

كنت حينذاك مهمشا ولكننى كنت أعلم أننى لن أتخلى عن المعركة. كنت فى بيئة مختلفة وصغيرة حيث الجمهور هو أنفسنا وسجانونا. ولكنا نظرنا للمعركة داخل المعتقل كمصغر للمعركة ككل. فقد كانت هناك نفس العنصرية ونفس الاضطهاد. ولم يدر فى خلدى قط أننى لن أخرج من السجن يوما من الأيام وكنت أعلم أن سيجئ اليوم الذى أسير فيه رجلا حرا تحت أشعة الشمس والعشب تحت قدمى. فإننى أساسا إنسان متفائل وجزء من هذا التفاؤل أن يُبقى الإنسان جزءا من رأسه فى اتجاه الشمس وأن يحرك قدميه إلى الأمام. وكانت هناك لحظات عديدة مظلمة اختبرت فيها ثقتى بالإنسان بقوة ولكننى لم أترك نفسى لليأس أبدا، فقد كان ذلك يعنى الهزيمة والموت.

-٦١-

وكان يتم إيقاظنا فى كل صباح فى الخامسة والنصف على صيحات السجان وفنون جرسه النحاسى. وكانت الفترة ما بين إيقاظنا وخروجنا من الزنزانات فى السابعة تُقضى فى تنظيف الزنزانة وطى الحصائر والبطاطين.ولم تكن هناك مياه جارية فى الزنزانات بل كان هناك دلو من الحديد وكان له غطاء مقعر من الخزف يوضع به الماء المخصص للحلاقة وغسل أيدينا وأوجهنا.

وكان أول شئ نفعله بعد خروجنا من الزنازنة إفراغ الدلو وغسله جيدا لمنع الرائحة الكريهة. وكان الشئ الوحيد المبهج فى تلك اللحظات هو أنها كانت فرصة للتهامس بيننا.

وكان السجناء من القسم العام يحضرون إلينا طعام الإفطار فى الزنزانة وكان عبارة عن ثريد الذرة وبعد ذلك بأشهر كنا نتناول طعام الإفطار فى الفناء حيث كان يوضع فى براميل زيت معدنية أما القهوة فكانت عبارة عن ذرة محمص مطحون مغلى فى الماء. وكان الطعام عنصريا لأن الملونين والهنود كانوا يتناولون طعاما أفضل قليلا من طعامنا. وكان الطعام موضع احتجاجنا. وبعد ذلك كنا نعمل فى تفتيت الحجارة حتى موعد الغداء الذى كان يتكون بالنسبة للأقارقة من ذرة مسلوقة أما الهنود والملونون فكانوا يتناولون نوعا من حساء الذرة بها بعض الخضروات أحيانا.

وبعد الغداء كنا نعمل حتى الرابعة ثم يسمح لنا بنصف ساعة للاغتسال وكانت المياه فى الحمامات هى مياه البحر الباردة، وبعد ذلك نتناول العشاء فى الزنزانات وكان يتكون من ثريد الذرة وأحيانا يضاف إليه حبة من الجزر أو البنجر أو قطعة من الكرنب. وأحيانا كانت تضاف قطعة غضروفية من اللحم إلى الثريد وكان الهنود والملونون يعطون ربع رغيف من الخبز فى العشاء. ثم يتم غلق أبواب الزنزانات والممرات فى الثامنة حيث كان من المفروض أن ننام. ولكن مرور الصوت فى الممر كان ممتازا فكنا نحاول أن نتجاذب أطراف الحديث أحيانا قبل النوم.

-٦٢-

وذات صباح وبعد أيام عديدة من لقائنا مع برام وجويل أُخذنا إلى المكتب الرئيسى واصطفنا هناك لأخذ بصماتنا وكان ذلك إجراء روتينيا فى السجن. وبينما كنا ننتظر لاحظت أحد السجانين ومعه كاميرا وبعد أخذ بصماتنا أمرنا كبير السجانين بالاصطفاف لالتقاط صورنا ولكننى أشرت على زملائى ألا يتحركوا وقلت للسجان إننى أود أن أرى الوثيقة الصادرة من مدير السجون والتى تخوله السلطة فى التقاط صورنا وكنت أعلم أن مثل تلك الوثيقة ضرورية. فهددنا بتوجيه الاتهام ضدنا إذا رفضنا أن يلتقط صورنا ولم يفلح تهديده. وكنا كقاعدة نرفض التقاط صورنا فى السجن لأن نشرها كان يعتبر نوعا من المهانة.

ولكن حدث أن فى صباح يوم بدل أن يعطى لنا السجان المطارق أعطانا إبرا وكومة من الملابس البالية وأمرنا أن نصلحها وكان الأمر قد استثار دهشتنا. وفى وقت متأخر من الصباح فُتحت البوابة الأمامية ودخل منها مأمور السجن ومعه زائران عرفنا أنهما مصور ومراسل صحيفة الديلى تلغراف اللندنية ولكننا كنا فى شك من أمرهما لأنهما أتيا تحت رعاية الحكومة ولأن الصحيفة التى يمثلانها محافظة. وكان من مصلحة الحكومة إزاء الاهتمام العالمى بأمرنا، أن تبرهن أنه لا يساء معاملتنا وسار الصحفيان حول الفناء وبقينا وراءهما إلى أسفل مركزين على عملنا ثم جذبنى أحد الحراس من كتفى وطلب منى أن أتكلم وتحدثت مع المراسل حوالى عشرين دقيقة عن السجن وعن

محاكمة ريفونيا بصراحة وعندما طلب التقاط صور ترددت ولكننى وافقت لعلمى أن الصور ستنشر بالخارج وربما تساعد القضية وطلبت إن يرافقنى سيسولو. ولم أر المقال أو أسمع عنه بعد ذلك.

وكانت القصص قد انتشرت فى الخارج عن طريق الصحافة عن الظروف غير الإنسانية فى الجزيرة وعن التهجم علينا وتعذيبنا وسببت الحرج للحكومة وعلى سبيل الرد عليها أحضرت مجموعات لزيارتنا لتدحض تلك القصص.

وفى يوم أخبرنا أن السيد هايننج ممثل جمعية المحامين الأمريكيين سيحضر لزيارتنا. وكان الأمريكيون مستجدين فى جنوب إفريقيا. وملأنى حب الاستطلاع لمقابلة ممثل جمعية قانونية مهيبة كتلك.

وفى يوم زيارته دعينا إلى الفناء ووصل الأمريكى برفقة جنرال شتاين مدير السجون الذى كان نادرا ما يأتى إلى الجزيرة وكان شخصيا يسبب لنا الاضطهاد بما يفعله وليس بما يفعله لأنه كان يترك للمسئولين حرية ممارسة وحشيتهم. واختارنى الآخرون للتحدث عنهم. وشكرت السيد هايننج ولخصت شكاوانا وأولها أننا مسجونون سياسيون ولسنا مجرمين ويجب أن نعامل على هذا الأساس وعددت الشكاوى من الطعام وظروف المعيشة والعمل. ولكن هايننج أخذ يقاطع حديثى. ولما تحدثت عن ساعات العمل الطويلة التى نقضيها فى مجهود جسدى قال إننا كمسجونين يجب أن نعمل وربما كنا أشخاصا كسالى -وذكر أن الظروف فى السجون الأمريكية أسوأ

بكثير منها فى جزيرة روبن وأضاف أن الحكم علينا عادل وأننا محظوظون أن لم يصدر حكم بإعدامنا، الأمر الذى استحققناه.

-٦٣-

تصنف السلطات المساجين فى جنوب إفريقيا... أربع فئات أ، ب، ج، د. وأرفع تلك التصنيفات «أ» ويمنحون بعض الميزات وكان جميع المساجين السياسيين يصنفون من فئة د وكانت الميزات تتضمن الزيارات والخطابات والفرصة لأن يشترى المسجون مأكولات وخلافه. وقد طالبنا اعتبارنا ضمن فئة أ ولكن كان التصنيف جزءا من نظام السجون. فإذا احتج سجين من فئة د على أنه يتسلم خطابا واحداً كل ستة شهور كانت الإجابة أن عليه أن يحسن سلوكه ليلحق بفئة ج ويتسلم خطابين كل ستة شهور وكانت التصنيفات توازى عدد سنوات الحكم فيبدأ السجين فئة د ثم يرقى كل سنتين إلى الفئة الأعلى وكانت السلطات تشهر ذلك النظام سلاحا ضد السجناء السياسيين وكانت أسهل وسيلة للارتقاء هى الطاعة وعدم الشكوى.

وكان مسموحا لى كسجين من فئة د أن أتلقى زيارة واحدة وخطابا واحدا كل ستة أشهر وكانت الزيارات مقصورة على الأقرباء من الدرجة الأولى -ولكن السلطة أساءت استعمال هذا الحظر فكانت الخطابات تصل إلى الجزيرة مرة كل شهر وأحيانا كان يمر ستة أشهر دون أن تصل خطابات وهكذا كان يحدث ألا نتسلم الخطاب المقرر كل ستة أشهر وكان يحدث حينما يصل الخطاب أن تحتجزه السلطات

وتخبرني أنني لن أتسلم الخطاب بدون أي توضيح وفي تلك اللحظات كنت أحتاج لما تعلمته من صبر كي لا أنفجر وأن أحتج من خلال القنوات الرسمية.

وخلال الستة أشهر الأولى تلقيت خطابا من ويني ولكن الرقابة كانت قد سودت بالحبر معظمه حتى لم يبق سوى التحيات. وبعد ذلك عدلت السلطات عن استخدام الحبر حينما اكتشفت أنه يمكن غسله وقراءة ما تحته واستخدمت الأمواس لقطع فقرات كاملة وحيث إن الخطابات كانت تكتب على صفحتي الورقة فكان ذلك يعني قطع أجزاء كاملة كانت الرقابة تسمح بها. وكانت قراءة الخطاب من الرقابة تستغرق شهرا أحيانا.

وبعد ثلاثة أشهر من وجودنا على الجزيرة تلقيت أنا و وولتر أول زيارة لنا. وكانت السلطات مثلا تتصل بزوجة السجين وتخبرها أن لديها تصريحا بزيارة زوجها اليوم التالي وبذلك تصبح الزيارات مستحيلة. فإذا كانت الزوجة رتبت أمر الزيارة مقدما تعمدت السلطات تأخير تسليم التصريح حتى تقلع الطائرة. وبما أن معظم أسر السجناء كانت تعيش في أماكن نائية عن الكيب ولم يكونوا يمتلكون من الأموال ما يكفي أصبحت زيارة الجزيرة أمرا يفوق استطاعتهم. ولذا قضى رجال سنوات طويلة دون رؤية زوجاتهم وبعضهم لم يروهن إطلاقا. وكانت الزيارة تتم في غرفة بدون نوافذ أقيمت بها أكشاك ضيقة بها مساحات صغيرة من الزجاج يحوي عددا صغيرا من الثقوب للتحدث من خلالها ولذا كان الحديث يستلزم استعمال الصوت العالي جدا

لكى يسمع الطرف الآخر، وبعد ذلك قامت السلطات بوضع مكبرات الصوت. واستدعيت أنا و وولتر إلى غرفة الزيارة ورأيت وجه وينى يملأ الزجاج وكانت دائما ترتدى ملابس أنيقة جديدة لزيارتى ولكن ذلك لم يخفف أثر المعاناة من وجهها. ثم اكتشفت بعد ذلك أن أمرا جديدا «بالحظر» قد صدر ضدها وأنها قد فقدت وظيفتها فى مركز رعاية الطفولة نتيجة لذلك وأنه تم تفتيش مكتبها لاعتقاد السلطات أنها تتصل بى. وكانت وينى مولعة بوظيفتها لصلتها بالمعركة فقد كانت تساعد على إيجاد آباء لتبنى الأطفال وإيجاد فرص عمل للعاطلين ومساعدات طبية لمن ليس لديهم تأمينات.

وأثناء الزيارة كان يقف خلفها سجانان ويقف خلفى ثلاثة وكانت مهمتهم التخويف إلى جانب الرقابة. وكانت التعليمات تنص على أن المحادثة يجب تكون بالإنجليزية أو الأفريكانية وإلا أنهى السجان المحادثة وكان يجب أيضا أن تكون عن أمور الأسرة فقط. وطمأنت وينى عن نفسى وسألتها عن كل أفراد الأسرة وفجأة سمعت السجان ينهى المقابلة. وبينما كنت أسير فى طريقى إلى الزنزانة استعدت ما تحدثنا عنه وكنت أفعل ذلك وأستحضر صورتها خلال الأسابيع والشهور التى تلت فقد كنت أعلم أننى لن أراها قبل ستة أشهر على الأقل. وكان لى ألا أراها لمدة عامين بعد ذلك.

-٦٤-

وذات صبح.. وبدلا من أن نسير إلى الفناء أُمرنا بالسير إلى الخارج

ودخول شاحنة مغطاة وبعد دقائق خرجنا ووجدت أننا فى المكان الذى رأيته أول شئ حين أتيت الجزيرة عام ١٩٦٢ وكان ذلك هو محاجر الجير. وقابلنا هناك الضابط المسئول الكولونيل وسيلز وقال لنا إن العمل الذى سيعهد لنا به سيستمر ستة أشهر بعدها يعهد إلينا بواجبات طفيفة. ولم يكن توقيته صحيحا إذا استمر عملنا فى المحاجر ثلاثة عشر عاما.

وسُلمنا فئوسا ومجارف ثم أعطينا تعليمات أولية عن تنجيم الجير. فالجير نفسه يوجد مدفونا تحت طبقات من الصخر يجب تكسيرها بالفأس ثم يُستخرج الجير بالمجرفة. كان ذلك العمل أصعب كثيرا من العمل فى الفناء وكنا فى الأيام الأولى ننام من شدة الإجهاد بعد العشاء مباشرة وكان ذلك فى الرابعة والنصف ولا نستيقظ إلا فى اليوم التالى.

وفسرنا ذلك التغيير على أنه طريقة السلطات لإخبارنا أننا لا نختلف عن السجناء العاديين الذين كانوا يعملون فى محاجر الجزيرة فقد كان ذلك ضمن المحاولات لسحق معنوياتنا. لكن الأسابيع الأولى فى المحجر كان لها أثر عكس ذلك هو أنه بالرغم من أيادينا الدامية المتلئة بثورا فقد زادت قوتنا. وكنت أنا أفضل تواجدى فى أحضان الطبيعة مع الحشائش والأشجار أرقب الطيور وأشعر بالريح وهى تهب من البحر.

وخلال أيام أصبحنا نمشى إلى المحاجر بدلا من ركوب الشاحنة.

وكانت العشرون دقيقة التى تستغرقها الرحلة فرصة لنا لرؤية الجزيرة وكان بإمكاننا رؤية الأدغال الكثيفة والأشجار الطويلة التى تحيط بنزلنا وأن نشتم النباتات والزهور. ورغم أن عملنا فى المحاجر كان يهدف لإشعارنا أننا لا نختلف عن السجناء الآخرين فقد كانت السلطات تعاملنا كالمصابين بالبرص وكانت تأمر المساجين الآخرين بالاختفاء فى الأحراش إذا حدث ومررنا بمجموعة منهم أثناء سيرنا. غير أننا كنا نلمح من طرف أعيننا أحيانا بعضهم وهم يرفعون قبضتهم بتحية المؤتمر.

وقرب المحجر كان الطريق يتفرع وكان السجناء العاديون يسلكون الجهة اليمنى فى اتجاه محاجرالحجارة، وقد أصبح التقاء الطريق ذلك نقطة هامة للاتصال فيما بعد وحيث كان الطريق يتفرع كان بإمكاننا أن نرى الأحراش والكوخ الأبيض الصغير الذى كان يعيش فيه روبرت سوبوكوى. وكانت مدة الحكم على سوبوكوى قد انتهت عام ١٩٦٣ لكن كان يحق لوزير العدل أن يبقى السجناء دون اتهامهم لأجل غير مسمى وهذا ما فعلوه مع سوبوكوى الذى كان يعيش نصف حياة فى الجزيرة فقد كان رجلا حرا محروما من حريته.

وكنا نبدأ العمل فى الصباح.. وقبل الظهر مباشرة كنا نعبئ الجير فى عربات يد نجرها إلى الشاحنة التى تنقل الجير بعيدا.

وكانت الصفارة تنطلق فى منتصف النهار فننزل أسفل التل حيث كنا نجد البراميل المحتوية على الذرة المسلوقة وكانت طيور النورس تحلق

أثناء أكلنا وهى تصرخ ثم تنقض وتدور حولنا وأحيانا كان يسبب روثها إفساد طعامنا. ثم كنا نعمل مرة أخرى حتى الرابعة وننقل الجير إلى الشاحنة. وبنهاية اليوم كانت أجسادنا ووجوهنا تكون مغطاة بطبقة سميكة من الرماد الأبيض نحاول جاهدين إزالتها بمجرد عودتنا إلى الزنزانات.

وكان الضوء فى المحاجر أسوأ من الحرارة لأن أشعة الشمس كانت تنعكس فى أعيننا من الجير نفسه وكانت تتسبب فى انهمار الدموع من أعيننا. وقد طالبنا بنظارات شمسية فرفضت السلطات حيث إن التعليمات لم تكن تسمح حتى بالنظارات الطبية. وبعد ثلاث سنوات ونصف من المطالبة قرر طبيب متعاطف ضرورة النظارات وإلا فقدنا بصرنا. وكان علينا أن نبتاعها نحن.

وبالنسبة لنا فقد كانت الحملة لتحسين الأوضاع فى المعتقل جزءا من الحملة ضد الأبارتايد فى الخارج. فقد كنا نحارب عدم العدالة أينما وجدناه وكان علينا أن نحاربه لنحتفظ بآدميتنا.

وبعد ذلك بوقت قصير التحق بنا عدد آخر من أعضاء MK البارزين الذين كان قد ألقى القبض عليهم فى يوليو ١٩٦٤ وحوكموا وأدينوا وكان من بينهم ماك مهاراج ولالو تشيبا ووليتن مكاوايى الذى كان فى محاكمة الخيانة وترك طليقا عن طريق الخطأ وفر إلى الخارج وتلقى التدريب العسكرى وأصبح القائد العام لـMK بعد محاكمة ريفونيا، وكذلك إيدى دانيالز الذى أصبح أحد أحسن أصدقائى فى المعتقل.

ولكى توازن السلطات وجود الحلفاء السياسيين وضعت بيننا عددا من المساجين العتاة المحكوم عليهم فى قضايا قتل واغتصاب وسرقة بالإكراه والذين كانوا يثيرون الرعب بين السجناء وكان دورهم كعملاء هو إثارة الشغب واغتصاب طعامنا وتعويق أى مناقشات سياسية كنا نحاولها. وكنت أرى فى هؤلاء مادة خاما يمكن تغييرها وهذا ما حدث، مثلا بالنسبة لأحدهم الذى التحق بالمؤتمر فيما بعد وقدم خدمات جليلة فى تهريب أشياء من وإلى المعتقل.

وذات يوم سمعنا أن سجانا فى المحجر ضرب بوجارت قائد عصابة السجناء العتاة ضربا وحشيا أدى إلى إحداث جرح عميق وكدمات فى وجهه وطلب بوجارت منى المساعدة. وكنا دائما نبحث عن موقف نتخذه ضد السلطات ونعلم أن تقريرا عن الضرب هو نوع الحادث الذى يمكن إثارته مع قيادة السجون. وكنت قد علمت قبل ذلك بفترة وجيزة أن رجلا من PAC قد ضُرب أيضا. وبصفتى محاميا كتبت خطابا إلى مدير السجون نيابة عن المعتدى عليه. ووُجهت بالمسئولين فى السجن الذين أنكروا. لكنى صممت على نقل السجان ورُفض الطلب بداية ولكن بعد ذلك بقليل تم نقله. وشجعتنى تلك الواقعة فطلبت مقابلة رئيس السجن الذى قال لى إنه حقق فى القضية وثبت بطلان الادعاء ولكنى تمسكت بأن يُجرى تحقيقا ولكن الضابط أخبرنى أن المدعى ينكر أنه ضُرب وواجهنى ببوجارت الذى كانت تغطى وجهه الضمادات وأنكر أنه ضُرب. ومنذ ذلك الوقت صرت أطالب المسجون المعتدى عليه بتقرير خطى موقع عليه قبل تولى قَضيته.

-٦٥-

وذات يوم فى صيف ١٩٦٥ لاحظنا تحسنا غير عادى فى الطعام. وفى اليوم التالى تلقى بعض الأفراد قمصانا جديدة وأخذ السجانون يعاملوننا باحترام. وبعد ذلك علمنا أن رجال الصليب الأحمر الدولى سيصلون فى اليوم التالى.

وفى السنوات الأولى لم يكن أحد يستمع إلى شكاوانا أو يستجيب لها سوى الصليب الأحمر. وقبل ذلك بقليل تقدمنا بقائمة شكاوى إلى مدير السجون وقدمناها إلى كبير السجانين الذى لم يكن يريد تسلمها بحجة خرقنا للتعليمات لأننا استخدمنا الورق فى غير كتابة الخطابات.

وفى يوم الزيارة استدعيت إلى المكتب للقاء ممثل الصليب الأحمر وكان حينذاك ولسنوات قليلة بعدها هو السيد سن مدير السجون فى بلده الأصلى السويد ثم هاجر إلى روديسيا. وعكس جميع المقابلات لم تكن تلك مراقبة وكتب مذكرة تفصيلية بجميع الشكاوى والمظالم وشكرنى لما قلته -وشكوت من ملبسنا وقلت إننا نطالب بسراويل طويلة وجوارب وملابس داخلية وشكوت من الطعام والزيارات والخطابات والدراسة والتدريب والأشغال الشاقة وتصرفات السجانين. وتقدمت بطلبات كنت أعلم أن السلطات لن تنفذها كأن ننقل إلى سجون قرب منازلنا.

وبعد الزيارة بقليل تحسنت الملابس بأن صرفت لنا سراويل طويلة. ولكن سن لم يكن بالشخص التقدمى وكانت سنوات إقامته فى

روديسيا قد عوّدته على التفرقة العنصرية. فمثلا قبل عودتى إلى الزنزانة ذكرت أنه لا يُصرَف خبز للأفارقة وكان رده أن الخبز مضر جدا بالإنسان، وأن الذرة أفضل وبعد سنوات صارت الهيئة ترسل أشخاصا أكثر ليبرالية ولعبت دورا هاما: فقد كانت تمد زوجاتنا وأقاربنا بالأموال التى كانت تساعدهم على زيارة الجزيرة.

وبعد شهور قليلة من وصولنا أعلنت السلطات أن على الراغبين فى الدراسة التقدم بطلباتهم. وتقدم معظم السجناء وسمح لهم وكانت الدولة تشعر بالثقة فمنحنا الإذن. وندمتْ على ذلك فيما بعد. ومنحتُ أنا الإذن بمواصلة الدراسة العليا، وسجل السجناء للدراسة الجامعية وللحصول على شهادات المدارس. لكن تم منع دراسة السياسة والتاريخ العسكرى، كما مُنعنا من تلقى أموال من أسرنا ومعنى ذلك أن الدراسة كانت مقصورة على من لديهم نقود. ومُنعنا حتى من إعارة كتبنا لزملائنا. وكنت أدرس أنا تبعا لجامعة لندن مما نجم عنه تمكنى من دراسة كتب مثيرة غير التى كانت تدرس بجنوب إفريقيا لكن السلطات كانت تصادر الكثير منها.

وتقدمنا بشكوى من عدم وجود مقاعد وسلمناها لمندوب الصليب الأحمر وفى النهاية قامت السلطات بتثبيت لوحات خشبية فى الجدران كنا ندرس عليها ونحن وقوف وشكونا مرات حتى منحتنا الدولة مقاعد بدون أظهر وقللت من ارتفاع اللوحات بعد حوالى ستة أشهر.

وذات يوم سبت بعد عودتى من التدريبات التى كان يسمح لنا بها

لمدة نصف ساعة يوميا لاحظت أن أحد السجانين وقد أصبح ودودا نحونا قد ترك إحدى الصحف على المقعد. وكانت الصحف ضمن قائمة الممنوعات وأغلى ما كنا نتمناه. وكنا نتوق إلى الأنباء ولكن السلطات لم تكن تريد لنا أن نعرف شيئا قد يرفع معنوياتنا. وفيما بعد تمكنا من الحصول على الصحف بطرقنا. وكان الحراس فى المحجر يغلفون سندوتشاتهم بأوراق صحف ثم يلقونها فى القمامة فكنا نغافلهم ونحصل عليها. وكانت الرشوة هى الطريقة الأخرى حيث كان كثير من السجانين فى حاجة إلى نقود ولما كان تداول الصحف التى كنا نحصل عليها بتلك الطريقة شديد الخطورة فقد كان كاثراداء وفيما بعد ماك ماهراج يقومان بقراءتها وتلخيص ما يخصنا فى أوراق صغيرة نتداولها ويتم تهريبها بعد ذلك إلى القسم العام.

وحينما رأيت الصحيفة على المقعد تركت زنزانتى وسرت إلى نهاية الممر ونظرت فى الاتجاهين ثم اختطفت الصحيفة وجلست مستغرقا فى قراءتها لدرجة أننى لم أسمع صوت الأقدام القادمة. وفُتحت الزنزانة ودخل الضابط والسجانون واتهمت بحيازة ممنوعات وتم استدعاء القاضى وحكم على بالحبس الانفرادى ثلاثة أيام وفى الحبس الانفرادى كان يتم حرمان الفرد من الرفقة والتدريب والطعام الذى كان عبارة عن ماء أرز ثلاث مرات يوميا.

وكما ذكرت فإننى كنت أجد أن الحبس الانفرادى أبغض مظاهر المعتقل فلا توجد بداية أو نهاية. فليس هناك سوى عقل الإنسان الذى

يبدأ فى خداعه ويبدأ الفرد فى التساؤل عما إذا كان شئ بعينه حقيقة أم خيالا ويبدأ فى مساءلة قراراته وأهمية تضحياته. أما جسم الإنسان فيتكيف مع أى ظروف قاسية كما أن المعتقدات الراسخة هى سر البقاء فى ظروف الحرمان.

وكان الحبس الانفرادى روتينا فى السنوات الأولى نعاقب به على نظرة مخالفة أو عدم الوقوف إذا دخل الحارس الزنزانة. وكان بعض أعضاء الـPAC الذين يتحدون الأوامر من أجل التحدى يقضون أوقاتا طويلة فى الحبس الانفرادى.

-٦٦-

إن أهم فرد فى حياة المعتقل ليس وزير العدل أو مدير السجون أو مأمور المعتقل لكنه السجان الذى يعمل فى القسم الذى به السجين - فإن شعرت بالبرد وكتبت إلى الوزير طالبا بطانية لن تتلقى ردا أما مدير السجون فيقول إن ذلك ضد التعليمات وسيرد مأمور المعتقل قائلا إنه إذا أعطاك فسيعطى الآخرين. ولكنك إذا التجأت إلى سجان أنت على علاقة طيبة به فسيذهب إلى المخزن ويحضرها لك.

وكنت أحاول دائما أن أبقى على علاقات طيبة مع السجانين فإن العداوة كانت تعتبر هزيمة للنفس، وكانت سياسة المؤتمر قائمة على محاولة تعليم الأفراد حتى الأعداء منهم. ولكن أن تكون ودودا مع سجان لم يكن أمرا هينا لأنهم عموما كانوا يجدون فكرة التأدب مع رجل أسود كريهة.

وسهّل اجتذاب السجانين المتعاطفين أحد أصعب مهامنا فى جزيرة روبن، ألا وهو الاتصال. فقد كنا نعتبر الاتصال بالأقسام التى يتواجد بها رجالنا من المساجين العاديين أمرا واجبا لأنه كان يهمنا كسياسيين أن تقوّى منظمتنا داخل السجن وخارجه. كما أن الاتصال كان أساسيا لتنسيق احتجاجاتنا وشكاوانا ولأن دخول المعتقل والخروج منه كان يحدث كثيرا بين هؤلاء السجناء فكانوا يحصلون لنا على معلومات عما يحدث بالمنظمة فى الخارج وعن أخبار أصدقائنا وعائلاتنا.

وكان الاتصال بين الأقسام المختلفة خرقا للأنظمة وأمكننا تخطى ذلك الحظر عن طريق الرجال الذين كانوا يحملون إلينا الطعام وكانوا من الأقسام العامة وشكلنا لجنة من كاثرادا وماهراجا وتشيبا وآخرين للقيام بمهام تلك الاتصالات السرية.

لجأنا أولا إلى استعمال صناديق الثقاب التى كان يلقى بها الحراس لكتابة رسائل بأحرف دقيقة ووضعها فى الصناديق بعد إضافة قاع آخر لكل منها. وبعد ذلك اتفقنا مع رفاق من القسم العام ممن يعملون بالمطبخ على وضع الرسائل والمذكرات مغلفة بالبلاستيك أسفل براميل الطعام وكنا نرسل الردود بنفس الطريقة بالإضافة إلى أننا كنا أيضا نستعمل المراحيض العامة التى كان يشاركنا استعمالها سجناء القسم العام وكنا نحث رفاقنا السياسيين فى القسم العام على العصيان لكى يُرسَلوا إلى الحبس الانفرادى ويحضرون إلينا الرسائل ويتسلمون رسائلنا من المراحيض.

وكنا نكتب رسائلنا بطريقة يصعب قراءتها أو فك ألغازها إن أُمسك بها. فكنا أحيانا نستعمل الحليب فى الكتابة التى كانت تتضح إذا رشت بالسائل المطهر الذى كنا نستعمله فى تنظيف الزنزانات. كما كنا نستعمل ورق «التواليت» وكان وسيلة محببة لسهولة تخبئته وحمله. وبعد أن اكتشفت أمره السلطات قللت الكمية المسموح بها بدرجة كبيرة. وكانت أفضل وأسهل طريقة هى دخول المستشفى الوحيد فى الجزيرة حيث كان يصعب فصل المساجين بالقسم العام عن المساجين السياسيين وكان يمكن هناك تبادل المعلومات عن المنظمات السياسية والإضرابات والتباطؤ وغير ذلك.

أما الاتصال بالعالم الخارجى فكان يتم عن طريق السجناء الذين يكملون مدة العقوبة ويفرج عنهم وعن طريق الزائرين. فكان المفرج عنهم يحملون خطابات فى أمتعتهم أما بالنسبة للزوار فكان الأمر صعبا عدا المحامين الذين لم يكن يسمح بتواجد السجانين فى حضورهم وكنا أحيانا نسلمهم خطابات كما أننا كنا ننقل المعلومات لهم عن طريق كتابتها كما كنا نفعل أثناء محاكمة ريڤونيا لأن الغرفة كان بها أجهزة تصنت.

وعن طريق مذكرة مخبأة فى براميل الطعام علمنا أن مساجين القسم العام سيقومون بالإضراب عن الطعام لسوء الأحوال ولم تذكر المذكرة الزمن أو المدة ولكننا قررنا مشاركتهم.

وخلال اليوم الأول قُدمت لنا المقادير العادية أما فى اليوم الثانى فكانت

المقادير أكبر من إضافة الخضروات وفى اليوم الثالث كان هناك لحم طازج زادت كميته فى اليوم الرابع. وسمعنا أن المساجين فى القسم العام بدأوا يفقدون قوتهم وكان يتم نقلهم للمستشفى على عربات يد.

واستُدعيت إلى مكتب الرئيس لمقابلة الكولونيل ويسيلس وكان زملائى يعلمون أن السلطات ستحاول التأثير علىّ لأدعو لإنهاء الإضراب. وطلب ويسيلس معرفة أسباب إضرابنا فأجبته أننا نرى أن إضرابا لتحسين الأحوال هو امتداد للنضال ضد الأبارتايد وأضفت أن معركتنا فى القسمين واحدة. فأنهى المقابلة. وفى اليوم التالى علمنا بتطور غير عادى فى الأحداث فقد قاطع السجانون طعامهم ورفضوا الذهاب إلى الكافيتريا الخاصة بهم. ولم يكونوا مضربين تأييدا ولكنهم رأوا أنه إذا كنا نحن نستطيع الإضراب فلماذا لا يضربون هم للمطالبة بطعام أفضل وبتحسين وسائل معيشتهم. وكان إضرابان فى وقت واحد أمرا كبيرا بالنسبة لسلطات السجن فسوَّت أمورها مع السجانين وطلبت من مسجونى القسم العام إرسال ثلاثة مندوبين للمفاوضات. فأعلن المسجونون هناك انتصارهم وأوقفوا الإضراب وتبعناهم.

وكنت أرى أن مجرد الإضراب عن الطعام داخل السجن أمر غير واقعى فلكى يكون فعالا يجب أن يعلم به العالم الخارجى وكانت الاتصالات شبه مستحيلة فى تلك السنوات.

وبالنسبة لى كان الإضراب عن الطعام أمرا سلبيا يضر بصحة

أجسادنا الضعيفة واستدعاءً للموت. وكنت دائما أفضل أنواع المقاومة الأكثر إيجابية ونضالا كالإضراب عن العمل والتباطؤ ورفض أعمال النظافة وتلك أعمال تضر بالسلطات ولا نعاقب بها أنفسنا ولكن اقتراحاتى لم تلق تأييدا. وكان متى اتُخذ القرار أؤيده تماما.

-٦٧-

وفى منتصف الإضراب عن الطعام فى يوليو ١٩٦٦ زارتنى زوجتى للمرة الثانية وكانت قد تعرضت لمضايقات جمة منذ زيارتها عام ١٩٦٤ واضطهدت الشرطة أخاها وأخواتها وحاولت السلطات منع أى فرد من عائلتها العيش معها وكنت أعرف بعض التفاصيل لأننى كنت عند عودتى من المحجر أحيانا أجد قصاصات بها أنباء عن وينى وقد وضعها أحد السجانين على سريرى.

وعملت السلطات على وضع العراقيل فى سبيل زيارات وينى بفرض الحظر عليها الأمر الذى كان يمنعها من السفر وبعد ذلك أخبرتها السلطة أنها تستطيع زيارتى فقط إذا كانت تحمل تصريح مرور وكانت وينى ضمن من احتججن على التصاريح فى الخمسينات فكان رفضها طبيعيا ولكنى اعتقدت أن رؤية أحدنا الآخر أهم من مقاومة الإجراءات التافهة ووافقت على حمل التصريح. وكانت إجراءات زيارتها طويلة ومعقدة فقد كان محظورا عليها السفر سوى بالطائرة مما كان يكلفها كثيرا وكان عليها التوقيع على وثائق مكتب شرطة كيب تاون عند وصولها وقبل رحيلها هذا عدا مضايقات أخرى كثيرة.

وكانت مدة الزيارة الثانية نصف ساعة وكان هناك الكثير الذى نود مناقشته. وتكلمنا عن تعليم الأولاد وعن صحة والدتى المتدهورة وعن أمورنا الحالية وكانت وينى قد ألحقت طفلتينا بمدرسة هندية وقامت الدولة بمضايقة المدير باعتبار ذلك خرقا لقانون التعليم لأن الطفلتين إفريقيتان وقررنا إرسال الطفلتين للدراسة فى سوازيلاند رغم ما كان يعنيه هذا لوينى. وسألتها أيضا عن أمور تتعلق بها وبالمؤتمر عن طريق استعمال أسماء مستعارة متفق عليها.

وبعد الزيارة علمت أن وينى قد ألقى القبض عليها وأفرج عنها بكفالة لعدم ذهابها إلى مركز الشرطة بعد زيارتى ورفضها تسجيل عنواننا وحكم عليها بالسجن سنة مع وقف التنفيذ مما ترتب عليه فقدانها لوظيفتها كإخصائية اجتماعية للمرة الثانية.

وعملت الدولة على اختلاق المضايقات لى بطريقة ظنوا معها أننى لا أستطيع المقاومة. فبناء على تحريض من وزير العدل اقترحت جمعية القانونيين للترانسفال شطب اسمى من قائمة المحامين المشتغلين على أساس إدانتى فى محاكمة ريفونيا. وأبلغتُ السلطات أننى سأتقدم بالطعن وأننى سأجهز دفاعى بنفسى وطلبت من موظفى السجن أن أعفى من العمل فى المحجر وأن تجهز زنزانتى بمنضدة وكرسى مناسبين وضوء للقراءة لأكتب المذكرة كما طلبت أن أنقل لبريتوريا لكى أستطيع استعارة الكتب المناسبة من المكتبة القانونية، وكان الرد المبدئى أن أقوم بتوكيل محام عنى ولكننى تقدمت إلى مسجل المحكمة العليا طالبا السجلات والكتب والوثائق التى أحتاجها وطلبت قائمة

بأسماء شهود الدولة وملخصات شهاداتهم وتلقيت ردا يطلبون فيه معرفة طبيعة دفاعى لكى يتمكنوا من إرسال ما طلب ورددت قائلا إن الدفاع سيعرفونه حين تنظر القضية.

واستمر تبادل سيل الخطابات بينى وبين المحكمة العليا والمحامى العام الذى كان سيمتل الجمعية القانونية ورفضت جميع طلباتى ولكننى واصلت الكتابة إليهم لعدة شهور وبعدها، وبدون مقدمات أسقطوا الموضوع وأمكننى قراءة ردود الفعل الرسمية لمعارضتى لأعمال الجمعية القانونية لأننا فى ذلك الوقت كنا نتلقى صحيفة يومية بانتظام. فقد تمكن ماك ماهراج من مصادقة الحارس الليلى وهو شخص هادئ كبير السن بعد أن طلب منه الحارس مساعدته فى دخول مسابقة كتابة مقال لصحيفة نظير وعد بجائزة وبعد أسبوعين حضر الحارس وهو مبتهج وقال لماك إن اسمه فى القائمة النهائية للمسابقة. وطلب منه كتابة مقال آخر ووعده بدجاجة مطهوة فى المقابل وقال له ماك إنه سيفكر فى الأمر وفى المساء قال للحارس إنه سيكتب المقال لقاء علبة سجائر وفى اليوم التالى أخبر ماك وولتر أن لديه بصمات الرجل على علبة السجائر وبإمكانه أن يبتزه ليحضر لنا صحفا ورغم تحفظاتنا على الوسيلة التى اتبعها ماك فلم نعارض. ونجحت الحيلة وبعد ذلك ولمدة ستة أشهر وحتى تم نقله كان الرجل يهرب إلينا الصحيفة يوميا وكنت أنا وماك نلخص الأنباء فى ورقة صغيرة ونتداولها.

وفى عام ١٩٦٦ بدأ الحراس فى المحجر يخففون من رقابتهم فكان باستطاعتنا أن نتحدث كما شئنا وأخذنا نكون مجموعات صغيرة

ونقضى اليوم فى التحدث فى جميع المواضيع.

وفى المعتقل يصبح لدى الإنسان وقت للتفكر، الأمر الذى لا يتأتى للمرء وهو فى خضم المعركة وكنا كثيرا ما ندخل فى مساجلات سياسية وكان أحد المواضيع الذى استغرق بحثه وقتا طويلا هو العلاقة بين المؤتمر والحزب الشيوعى. وكان البعض وخاصة جنود الـMK الذين كانوا قد ذهبوا إلى بلدان اشتراكية يعتقدون أنهما – المؤتمر والحزب– شئ واحد. وكانت هناك بعض الرئاسات فى المؤتمر مثل جوفان مبيكى وهارى جوالا الذين تبنوا نفس النظرة. فإن الحزب لم يكن يتواجد كشئ منفصل كما كان الحال فى الخارج ولم تكن نظرتى لتلك القضية قد تغيرت على مدى السنوات، أى أننى كنت أرى أن المؤتمر هو حركة جماهيرية ترحب بكل من كان له نفس الأهداف وبمرور الوقت أصبح الحوار لاذعا واقترح البعض أن نحسم ذلك الأمر بأن نكتب إلى المثقفين من أعضاء المؤتمر فى لوساكا وأعددنا وثيقة من اثنتين وعشرين صفحة مع خطاب منى وأرسلناها إلى لوساكا مع ما كان ذلك يحوى من المخاطرة. وفى النهاية أكدت لوساكا على فصل المؤتمر عن الحزب وانتهت المناقشة.

وكانت إحدى نقاط الحوار الأخرى هى ما إن كان من الواجب قصر قيادة المؤتمر على الطبقة العاملة. فقد كان البعض يرى أنه بما أن المؤتمر حركة جماهيرية تعتمد عضويته إلى حد كبير على العمال فإن القيادة يجب أن تكون من بين صفوفهم. وكانت وجهة نظرى أن قصر القيادة على طبقة واحدة مناف للديمقراطية وأن ذلك يعنى أن معظم

قادة المؤتمر مثل لوثولى وموسيس كوتانى وبادوو غير مؤهلين للقيادة. لكن لم تكن كل الحوارات سياسية بل كان هناك أخرى اجتماعية وتراثية.

-٦٨-

كان الربيع قد ترك أثره على السلطات فخففت من قبضتها الحديدية كما خف التوتر بين السجانين والسجناء. لكن فترة الهدوء لم تدم طويلا ففى أحد أيام سبتمبر ١٩٦٦ همس إلينا أحد مساجين القسم العام أثناء تناول الغداء قائلا إن ڤيرويرد قد توفى ونظرنا إلى بعضنا البعض غير مصدقين. ولم نكن ندرى كيف توفى وقد سمعنا بعد ذلك أن شخصا أبيض يعمل مراسلا فى البرلمان قد طعنه ولم نعرف دوافعه.

وكان ڤيرويرد قد برهن على أنه المنظر الأساسى ومهندس بنية الأبارتايد فقد تبنى خلق البانتوستانات ونظام تعليم البانتو.

وفى اليوم التالى كان من الواضح أن السجانين قد علموا بالأمر وبدأوا يعكسون شعورهم بالغضب علينا. وتبلور التوتر مرة أخرى وأخذت السلطات تفرض أنظمتها بقسوة. وكانت السلطات تعتقد أننا على علاقة سرية بالمنظمات الوطنية بالخارج. وكان انفجار أعمال حرب العصابات الناجحة ضد شرطة جنوب إفريقيا فى ناميبيا بواسطة منظمة سوابو وهى حليف المؤتمر قد أفقد السلطات تماسكها. وتجددت الأجواء الصارمة التى كانت سائدة عند وصولنا إلى الجزيرة.

وتم استبدال الحارس المسالم بضابط متشدد شرير يدعى فان رينسبرج وكان قد طار إلى الجزيرة بعد أربع وعشرين ساعة من الاغتيال وكان اسمه معروفا ومقترنا بين المساجين بالوحشية. وكانت وظيفته تنحصر فى إتعاس حياتنا الأمر الذى كان يفعله بحرارة.

وخلال الأشهر التالية كان رينسبرج يتهم واحدا منا يوميا بالعصيان أو التهرب، وكان كل صباح يناقش زملاءه عمن سيوجه إليه الاتهام بعد الظهيرة. وكانت سياسته سياسة تخويف انتقائى وكان الاتهام يوجه للشخص عشوائيا. وبدأت المحكمة الإدارية للمعتقل تعمل ساعات إضافية. وردا على ذلك كونَّا لجنة قانونية منى وفيكيل بام وماك ماهاراج لتوجيه الاستشارة القانونية للرفاق فى تعاملاتهم مع المحكمة الإدارية.

وكان فان رينسبرج حقودا فى عظائم الأمور وصغائرها. فكان مثلا يختار وقت تناولنا الغداء ليتبول إلى جوار طعامنا وكانت إحدى الوسائل التى أمكننا الانتقام بها منه هو جعله موضع تفكهنا واستهزائنا.

وذات صباح فى بداية عام ١٩٦٧ وبينما كنا نستعد للذهاب إلى المحجر أخبرنا فان رينسبرج أن أمرا صدر من الماجور كيليرمان بمنعنا من الحديث أثناء السير والعمل. وكان الحديث هو الشئ الوحيد الذى يجعل العمل فى المحجر محتملا وأثار هذا استياءنا وغضبنا. وتمكن قادة المؤتمر والمنظمات السياسية الأخرى من

تكوين خطة وبينما كنا نناقشها ظهر ماجور كيليرمان بنفسه وكان ذلك أمرا غير عادى وأعلن بشئ من الإحراج أن أمره كان خطأ وأننا باستطاعنا الحديث على أن نفعل ذلك فى هدوء وقفل راجعا. وانتابنا الشك. وطوال ذلك اليوم لم يجبرنا أحد على العمل الشاق وعمل ڤان رينسبرج جهده ليتودد إلينا وقال إنه كدليل على حسن نيته فسيسحب الاتهامات التى كان يزمع توجيهها إلينا. وبعد ظهر ذلك اليوم اكتشفت أن حاجياتى قد نقلت إلى الزنزانة الخلفية رقم ١٨ بدلا من الزنزانة الأمامية التى كنت أحتلها. وحدست أن هناك أمرا مرتقبا وأنه قد تم نقلى لكى لا أكون أول المتحدثين وأنه سيبدأ بالاستماع إلى شكاوى المسجونين الآخرين وحينما يأتى دورى سيكون ميعاد إعلان أن الوقت قد انتهى. وقررنا أن يقول الجميع إن سجين الزنزانة رقم ١٨ هو الذى سيتحدث باسمهم. وفى الصباح التالى تم إخبارنا بأن نذهب إلى المحجر ثم ظهر الماجور كيليرمان ليقول إن السيدة هيلين سوزمان ممثلة الحزب التقدمى وعضو المعارضة الوحيد فى البرلمان، وربما العضو الوحيد هناك الذى كان يهتم بمعاناة المسجونين السياسيين قد حضرت يرافقها جنرال شتاين مدير السجون وسارت الخطة كما رسمناها ووصلت إلى باب زنزانتى وكانت القصص قد انتشرت عن جزيرة روبن وحضرت بنفسها لتقصى الحقائق.

ولم أتحفظ فيما قلت رغم وجود ستاين وكيليرمان وأخبرتها برغبتنا فى تحسين طعامنا وملبسنا وتوفير احتياجات الدراسة ووسائل المعلومات

مثل الصحف وأشياء أخرى كثيرة وأخبرتها عن قسوة السجانين وبالذات فان رينسبرج وسجلت سوزمان ما قلت ووعدتنى أن ترفع الأمر إلى وزير العدل ثم قامت بتفتيش الزنزانات وتحدثت مع آخرين.

وكان فان رينسبرج منزعجا أثناء حديثى مع سوزمان كما أخبرنى كاثرادا واعتذر عن تصرفاته السابقة ولكن فى اليوم التالى عاد إلى سيرته الأولى وأعلن أنه سيعيد اتهاماته لنا. وفيما بعد علمنا أن سوزمان قد رفعت شكوانا إلى البرلمان وبعد أسابيع قليلة تم نقل فان رينسبرج.

-٦٩-

لم أتخيل فى يوم أن المعركة ستكون قصيرة أو سهلة وكانت السنوات الأولى فى المعتقل سنوات صعبة بالنسبة للمنظمة فى الخارج وبالنسبة لنا فى الداخل. وكانت معظم الآليات السرية قد تم تدميرها بعد ريفونيا وتم اكتشاف هياكلنا واقتلاعها. وكان الذين لم يتم القبض عليهم يحاولون بصعوبة تجنب العدو وكان كل الأعضاء القياديين تقريبا إما فى المعتقل أو فى المنفى.

وفى السنوات التى تلت ريفونيا أخذت البعثة الخارجية للمؤتمر التى كانت فى الأصل مسئولة عن جمع الأموال والمهام الدبلوماسية وتوفير التدريب بزمام الأمور كلها. فلم تعمد فقط إلى خلق منظمة فى المنفى بل تولت المهمة الأصعب وهى تنشيط النظام السرى للمؤتمر داخل جنوب إفريقيا.

أما الدولة فقد ازدادت قوتها كما ازدادت قوة الشرطة وأصبحت أساليبها أكثر عنفا ووسائلها أكثر صقلا وكبرت قوة دفاع جنوب إفريقيا واستقرت الأحوال الاقتصادية وكانت الحليفتان القويتان لجنوب إفريقيا، بريطانيا والولايات المتحدة، ترغبان فى إبقاء الأمور على ما هو عليه.

ومن ناحية أخرى نمت المقاومة للإمبريالية. فمنذ منتصف الستينيات وحتى نهايتها انتشرت المعارك فى جميع الجزء الجنوبى من إفريقيا وكانت سوابو تقوم بهجماتها فى ناميبيا وكذلك اشتدت حرب العصابات فى موزمبيق وإنجولا. أما فى زيمبابوى أو روديسيا سابقا، فكانت المعركة تتصاعد ضد حكم الأقلية البيضاء وكانت قوة دفاع جنوب إفريقيا تدعم حكومة إيان سميث البيضاء بينما اعتبر المؤتمر المعركة فى زيمبابوى امتدادا للمعركة فى قلب الوطن. وفى ١٩٦٧ علمنا أن المؤتمر أنشأ تحالفا بينه وبين اتحاد شعب زيمبابوى «زابو».

وفى تلك السنة عبرت مجموعة من جنودMK التى تلقت تدريبها فى تانزانيا وزامبيا نهر زامبيزى إلى روديسيا استعداداً للتسلل إلى البلاد وكان قد أطلق على تلك المجموعة فرقة لوثولى. وفى أغسطس وبينما كانت تتحرك تجاه الجنوب ترافقها فرق من الزابو اكتشفها الجيش الروديسى ونشبت معارك بين الطرفين أسفرت عن خسائر فى الأرواح لكل منهما. وفى النهاية تمت هزيمة قواتنا وأسر البعض وانسحب الآخرون إلى بوتشوالاند التى أصبحت فيما بعد بوتسوانا. وبداية

١٩٦٨ دخلت فرقة أكبر من جنود المؤتمر روديسيا وحاربت جيش روديسيا وشرطة جنوب إفريقيا المتمركزة هناك.

ولم نعلم عن ذلك حتى التحق بنا بعض من حاربوا من الرجال ورغم أنهم لم يحرزوا النصر فقد احتفينا بهدوء لمجرد أن كوادر الـMK قد قامت بالاشتباك مع العدو فى معركة بطريقتهم.

وقبل أن نعلم عن المعارك فى الخارج كنا قد علمنا بوفاة الرئيس لوثولى فى منزله فى يوليو ١٩٦٧ فى ظروف غريبة. فقد صدمه قطار قرب مزرعته التى كان كثيرا ما يتمشى بها. وقد تركت وفاة لوثولى فراغا فى المنظمة فقد كان حائزا على جائزة نوبل وكان شخصية دولية متميزة احترمه البيض والسود. ووجدت المنظمة فى أوليفر تامبو الذى كان نائب الرئيس العام خليفة للرئيس. ومثل لوثولى كان أوليفر متحدثا ماهرا واثقا ومتواضعا وكان يجسد فكر لوثولى.

أقمنا صلاة وتأبينا للرئيس فى قسم ب ودعونا كل من يريد التحدث وحينما جاء دور نيقيل الكسندر وهو عضو فى حركة الوحدة ليتحدث كان من الواضح أنه يفعل ذلك من أجل دفن لوثولى وليس لإطرائه فقد اتهمه بالعمالة للبيض قبل جائزة نوبل. وكانت كلمة نيقيل الخاطئة ضد مناخ التعاون بين مختلف المنظمات الذى حاولنا خلقه فى الجزيرة.

وكنت قد رأيت فى تواجدنا بالجزيرة فرصة لرتق الخلاف بين PAC والمؤتمر ليكون ذلك سابقة لتوحيدهما فى معركة التحرير ككل. ولكن

منذ البداية كانت العلاقة بين المنظمتين علاقة تنافس أكثر منها تعاوناً وحين وصولنا رأى بعض أعضاء الـPAC أن تواجدنا على الجزيرة انتهاك لحضورهم هناك.

ولى عام ١٩٦٢ كان عدد أعضاء الـPAC يفوق بكثير عدد أعضاء المؤتمر ولكن فى عام ١٩٦٧كان الوضع قد انعكس وعمل ذلك على صلابة أعضاء PAC فى مواقفهم وتحادثت مع زيف موثوينج عضو لجنتهم التنفيذية وكان نقاشه ينصب على أن PAC أكثر نضالية من المؤتمر وأن علينا أن نتبع قيادتهم فى المعتقل. وفى عام ١٩٦٧ أجريت محادثات مع سلبى نجدانى حول موضوع الوحدة الذى كان يعارضه بشدة خارج المعتقل ولكن وجدت أن حدته قد خفت وكتب كل منا خطابا إلى منظمته فى القسم العام نؤيد الوحدة. وكان هناك تعاون بين المؤتمر وكلارانس ماكيتو الذى أصبح بعد ذلك رئيسا لـPAC وكان قبل ذلك عضوا فى تنظيم شباب المؤتمر ولكن بعد الإفراج عنه خلفه جون يوكيلا فى قيادة المنظمة فى الجزيرة وتعثرت المحادثات.

وكون المؤتمر منظمته الداخلية فيما عرف بالقيادة العليا التى كانت تتكون من الأعضاء القياديين الموجودين فى الجزيرة وكانوا سابقا أعضاء فى اللجنة التنفيذية مثل وولتر سيسولو وجوفان مبيكى وريموند مهلابا وعملت أنا رئيسا للجنة.

ومنذ البداية قررنا أن تحاول القيادة التأثير فى سياسة المؤتمر خارج

الجزيرة كما كنا نصدر قراراتنا بشأن الأمور التى نعلمها مثل شكوى المعتقلين والبريد والطعام وكنا أحيانا نعقد اجتماعات عامة. لكن نظرا لخطورة مثل تلك الاجتماعات التى كانت تضم أعضاء من مختلف المنظمات، ونظرا لتصادف كون أعضاء القيادة من الاكسهوسا ضممنا عضوا دوريا إلى الأعضاء الأربعة من خارج الاكسهوسا. ولم أكن أسيطر على القيادة بل على العكس فإن عددا من اقتراحاتى تم رفضها.

-٧٠-

فى عام ١٩٦٨ زارتنى والدتى ولم أكن قد رأيتها منذ نهاية المحاكمة وقد بدت وقد أصابتها الشيخوخة وكانت قد جاءت من ترانسكى برفقة ابنى مكباثو وابنتى مكازيوى وشقيقتى ميبل ولأن عدد زوارى كان أربعة وكانوا قد جاءوا من مسافة بعيدة فقد سمحت السلطات باستمرار الزيارة لمدة خمس وأربعين دقيقة.

وكان ابنى وابنتى قد نضجا وشعرت بالدهشة والفخر أما أمى فكانت قد نحفت مما سبب لى القلق على صحتها. فقط أختى ميبل بدت وكأنها لم تتغير.

وأبديت رغبتى لابنى وابنتى أن يواصلا تعليمهما وتحدثت لميبل عن الأهل فى ترانسكى ومر الوقت وشعرت أنها آخر مرة أشاهد فيها والدتى. وبعد أسابيع تلقيت برقية من ابنى يخبرنى فيها بوفاتها وقد أضاف إلى حزنى عدم استطاعتى المشاركة فى تشييعها.

.ودعاني موتها إلى مساءلة نفسي عن صحة قراري في أن أضع أمور شعبي في المقام الأولى على حساب رفاهية أسرتي. ولم تستطع والدتي أن تفهم لمدة طويلة التزامي بالمعركة. ولم تطلب أسرتي أو ترد التورط في المعركة لكن تورطي أنزل بهم العقاب. ولكني توصلت إلى نفس الإجابة فإنه من الصعب أن يتجاهل الإنسان في جنوب إفريقيا احتياجات شعبه حتى ولو كان ذلك على حساب أسرته فقد أخذت قراري وأيدت هي اختياري في النهاية. ولكن ذلك لم يقلل شعوري بالأسى على عدم قدرتي أن أجعل حياتها أكثر راحة وأن أشيعها بعد وفاتها.

وفي ١٢ مايو ١٩٦٩ احتجزت الشرطة وبني طبقا لقانون الإرهاب وكان ذلك جزءا من إجراءات صارمة شملت أرجاء البلاد واحتجز إثرها العشرات من بينهم شقيقة وبني. وتم وضع وبني في الحبس الانفرادي في سجن بريتوريا ولم يسمح لها حتى بالكفالة أو بالزيارات وأخذوا وعلى مدى شهور في استجوابها بوحشية ولما تم توجيه التهمة إليها هي واثنين وعشرين آخرين وهي تهمة محاولة إحياء المؤتمر أرسلت تعليماتي أن يتولى الدفاع عنها جويل كارلسون المعارض للأبارتايد. وفيما بعد التحق بالدفاع جورج بيزوس وآرثر تشاسكالسون من أعضاء فريق ريفونيا. وبعد سبعة عشر شهرا من اعتقالها أسقطت الدولة التهمة ضدها وتم الإفراج عنها وطلبت السماح بزيارتي ولكن طلبها رفض. وفي تلك الأيام تلقيت برقية من ابني الأصغر ماكجاثو يخبرني فيها أن ابني الأكبر الذي كنا ندعوه

ثيمبى قد قتل فى حادث سيارة وكظان وقتها فى الحادية والعشرين وأبا لطفلين. وليس لدىَّ من الكلمات ما أستطيع به التعبير عما شعرت به تجاه تلك المأساة التى جاءت على قمة أحزانى على والدتى وقلقى على ودنى.

ولم توافق السلطات على طلبى لحضور جنازة ولدى وكل ما سمحوا به هو أن أرسل خطابا لوالدته إيفيلين أشاركها فيه الأحزان.■